المحاضرة الأولى
مفهوم الموسيقى في الشعر

الحديث عن الشعر ومحاولة الكشف عن مقوماته الفنية والجمالية قائم على الاختلاف وتعدد وجهات النظر، ويزداد الإشكال حين يكون ذلك الحديث عن ماهية الشعر. وغالب الظّنّ أنّ الشعر سيظلّ يستعصي على التحديد، كما أشـ ار إلى ذلك أحد النقاد الغربيين حين قال: "لم يجد أحد حتّى أرسطو. تعريفًا كافيا للشعر"[1]

أ- **تعريف الشعر لغة:** الشعر في اللغة من شَعَرَ به وشَعُرَ يَشْعُر شِعْرًا وشَعْرًا وشِعْرَةً ومَشْعُورَةً وشُعُورًا وشُعُورَةً وشَعْرَى ومَشْعُورَاءَ ومَشْعُورًا؛ وهي كلّها بمعنى عَلِمَ، ولهذا جاء قولهم: ليت شعري؛ بمعنى: ليت علمي أو ليتني علمت.

ب- **تعريف الشعر اصطلاحا:** تنوعت تعاريف الشعر بتنوع الاتجاهات والمذاهب، فهناك من يرى أنّ شعر تعبير يعتمد على تقنية التخييل والتصوير، وهناك من يرى أنّه انفعال عاطفي ونفسي، وآخرون يرون في الشعر تعبيرا عن اللامنطق وخروجا عن العقل والنظام. ولعلّ الفريق الّذي كانت له الحظوة في تاريخ النظرية الشعرية والنقدية عند العرب على وجه الخصوص هو الّذي رأى في الشعر فنّا موسيقيا. فيا ترى ما مقدار العلاقة الّتي تربط الموسيقى بالشعر؟، وما مفهوم الموسيقى في الشعر؟

1- الشعر والموسيقى:

بين الشّعر والموسيقى علاقة قرابة منذ القديم. فقد كان كلاهما مثل توأمين تَصاحبا في الوجود منذ أن بدأ الغناء على شكل أشعار قصيرة، ما لبثت أن ارتقت لتصبح قصائد. ولا يرقى إلينا شكٌّ في أنّ الشعراء، في الجاهلية، كانوا يُغنّون أشعارهم، ويعبّرون عن نظمه وإلقائه بالإنشاد، حتّى غدا «الغناء ميزان الشعر»؛ وفي هذا الشأن يقول حسان بن ثابت:

تغنّ بالشعر إمّا أنت قائله إنّ الغناء لهذا الشعر مضمار

وكان من الشعراء من يُنْشد الشعر قاعدا، ومنهم من ينشده واقفا، كما أنّ من طقوس إنشاد الشعر والتغنّي به اللّباسَ والعناية به. عدا عن أنّ أحدهم قد يرفع من قدر الشعر، أو يحطُّ منه

[1] - عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي دار الفكر العربي، القاهرة، (د ط)، 1412هـ/ 1992م، ص**344**.

تبعا لحسن الإنشاد أو سوئه. وقد وجدنا كثيرا منهم يذكر في شعره الغناء والقيان وآلات الموسيقى المتنوّعة من صنجٍ ومزهرٍ ودفٍّ وعودٍ، وسواها؛ وهو ما يدلّ على ارتباط شعرهم بوظيفة الغناء، وظلّ ذلك مستمرّا حتى عهود متأخرة.

2- مفهوم الموسيقى[2] في الشعر:

يتشكّل مفهوم الموسيقى في النص الشعري عبر تقنيتين هما الوزن والإيقاع؛ فالوزن أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة، إلا أن تختلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن، وقد لا يكون عيباً نحو المخمسات وما شاكلها. والأصل فى الوزن الشعرى أنه يعتمد على تكرار وحدات ثابتة من الحركات والسواكن تسمى التفاعيل، وتكرار هذه التفاعيل عددا معينا من المرات فى كل بيت شعرى هو ما يسمى بالبحر. فتفعيلة مثل «فعولن» تحتوى على حرفين متحركين فساكن، فمتحرك فساكن.

أمّا الإيقاع فهو أكثر اتساعا ومرونة، وهو يتشكّل عبر مستويات عدّة صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية وستكون المحاضرة اللاحقة مساحة لبسط هذا المفهوم، ومحاولة تحديد نظرياته في الشعر العربي.

---

[2] - **مفهوم الموسيقى:** الموسيقى فنّ تجريديّ، وهي فن ترتيب الأصوات عبر فترات زمنية من خلال عناصر اللحن، والانسجام، والإيقاع والجرس. ويشرح أوتو كاروبي طريقة تشكيل النظام الموسيقى من خلال تواتر الأصوات، حيث يقول: "الصوت لا يتكون إلاّ بسبب نوع من الحركة، فالحركة (أو الاهتزاز Vibration) الناتجة من جسم مهتزّ، لنقل (الوتر) مثلا، أو جلد الطبل، تولّد ذبذبات وأمواجا تنتقل عبر الهواء- أو أي وسط ماديّ آخر- إلى الأذن البشرية، وسرعة انتقال الصوت من الجسم المهتزّ إلى الأذن في الهواء تبلغ 335 متر في الثانية (1100 قدم في الثانية)، هذه السرعة تتغيّر بتغيّر الظروف الجوية بطبيعة الحال، ومثلما ينتقل الصوت خلال الهواء، يمكن أن ينتقل عبر أوساط ماديّة أخرى، فسرعة انتقاله في الماء أو الخشب هي أكبر من سرعة انتقاله عبر الهواء"[2]. (أوتو كاروبي: مدخل إلى الموسيقى، ترجمة: ثائر صالح، دار نون للنشر، رأس الخيمة، الإمارت العربية المتحدة/ عمان- المملكة الأردية الهاشمية، ط1(1915)، ص 11)

وقد آلى الفلاسفة القدامى ظاهرة الموسيقى عناية كبيرة، حيث ألف الفارابي في هذا الشأن كتابا ضخما سمّاه (كتاب الموسيقى الكبير)، حيث عرّف الموسيقى بأنّها لفظ "معناه الألحان، واسم اللحن قد يقع على جماعة نغم مختلفة رتّبت ترتيبا محدودا، وقد يقع، أيضا، على جماعة نغم أُلفت تأليفا محدودا، وقرنت بها الحروف الّتي تركّب منها الألفاظ الدالّة المنظومة على مجرى العادة في الدلالة بها على المعاني، وقد يقع أيضا على معاني أخر غير هذه ليس يُحتاج إليها فيما نحن بسبيله"[2]. (الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير، ص47.)